سورة البقرة

المحاضرة التاسعة

الآيات من 41: 45

إن الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وبعد

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار

- توقفنا في اللقاء السابق عند قول الحق سبحانه:

" وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) "

(بِمَا أَنْزَلْتُ): أي بالقرآن.

(وَآمِنُوا): يأمر الله عز وجل بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن الذي أنزل على النَّبيِّﷺ وهذا يستلزم الإيمان بالنَّبيِّﷺ فهو مَن أُنزل عليه القرآن.

ملحوظة: أحيانًا يأتي الحق للإنسان فيمتنع عن اتّباعه بالرغم من يقينه أنه حق فيهرب ليس من مواجهة الآخر فقط بل إنه يهرب

حتى من نفسه كي لا يواجهها بهذا الحق محاولةً منه أن يروغ روغان الثعالب كي لا يُذعن لهذا الحق.

(مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ): لقد كان من المقبول قول (وَآمِنُوا) دون أن يذكر (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) ولكنه أعقب وَآمِنُوا بما يليها لأن في هذا بيان للداعي القوي الذي يمنعهم من الروغان والهروب وعدم اتباع الحق ومواجهة الحقيقة فلابد من الإيمان بالقرآن وبمَن أُنْزِلَ عليه لماذا ؟

لأن معهم التوراة التي جاء فيها وجوب الإيمان بالنَّبِيَّ ﷺ والمذكور فيها صفاته فإذا كنتم تُقِرُون بالتوراة التي معكم فليس أمامكم سوى خيارين: إما الإذعان للأمر والإيمان به، وإما التكذيب بالتوراة (حجة بالغة من رب العالمين)

_لقد جاء الأمر بالإيمان مع بيان الداعي الذي استوجب ضرورة الاستسلام والخضوع لهذا الأمر حيث أنه تضمن الإشارة إلى ترك تكذيب النَّبِيَّ ﷺ وكذا القرآن لأن ما جاء به محمد ﷺ هو نفس ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام فإذا ما اتخذوا موقف المُكذب له ولما جاء به فإنهم يكونون بذلك قد كَذَّبُوا الكتب التي يؤمنون بها (وفي هذا تكذيب لأنفسهم)

هناك ثلاثة أنواع من الإشارات:-

1- إشارة باطنية   2- إشارة صوفية   3- الإشارة عند أهل السنة والجماعة

- وهذا اللفظ (إشارة): يأتي بحسب ما يُستعمل

1- الجماعة الباطنية : هي جماعة ضالة كافرة خارجة من الإسلام، هؤلاء يقولون أن الآيات لها باطن ولا يعترفون بظاهرها (هؤلاء يُكثرون من استخدام لفظ الإشارة).

2- أما الصوفية: التفسير الإشاري الصوفي أقل قليلًا من الباطني والفرق بينهما هو اعترافهم بظاهر الآيات ولكن يُضيفون إلى ذلك أن لها باطنًا أيضًا.

**** مثال: (الم): هذه الحروف مقطعة والمقصود بها الإعجاز وتعجيز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، هذا تفسير مقبول وقال به بعض علماء أهل السنة (وإن كان الراجح التوقف فيه).**

كيف يتعامل الصوفية مع الآية؟

يذكرون القول الذي قاله بعض أهل السنة ثم بعد ذلك يأتون بقول باطن:

(الم) : ألف معناها: البداءة، واللام : المعاش، الميم : الميعاد !!

_طريقة هؤلاء هي ذكر قول يناسب قول علماء أهل السنة في الظاهر ثم يدرجون قولهم الباطني ضمن الأقوال على شكل (وقيل كذا أو قال بعض أهل العلم كذا) رغم أنه قول ليس له علاقة بالتفسير ولم يقل به أحد من المفسرين المعتمدين.

3- الإشارة عند أهل السنة والجماعة: عند هؤلاء تكون الإشارة جليّة واضحة يمكن استنباطها من آية أخرى(هذا هو صنيع أهل السنة)؛ فلابد عند القول بأن هذا الكلام يحمل إشارة أن يكون له دليل عند أهل السنة في موضع آخر(آية/حديث) يستدل به العالم على أنه إشارة من الله سبحانه.

_ولكن أن يدّعي شخص أن هناك إشارة من الله بكلام لم يُرده الله فإن هذا يُعد قول على الله بغير علم والذي يعد أيضا من الكبائر{وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(33)}[الأعراف]

(وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ): هذا أبلغ من قول ولا تكفروا لماذا؟ لأنه بهذا يُحذرهم من أن يستنوا سُنَّة الكفر بالنَّبِيَّ ﷺ وبما جاء به فيحملون وزر من يأتي بعدهم ويصنع صنيعهم إلى يوم القيامة.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» [أخرجه مسلم (1017)]

سؤال : بناء على ما سبق هل يُباح الكفر ولكن في درجات متأخرة عن الأول؟ فهل يكون الثاني أو الثالث أو حتى الرابع ممكنًا؟

_الرد: النهي هنا ليس المقصود به النهي عن أن يكونوا أول مَن يفعل ذلك بل المقصود النهي على الإطلاق.

يقول العلماء عن هذا: (المفهوم المعطل) والمقصود بذلك: أن يأتي ظاهر الآية فيه منع ولكن ليس المقصود به المنع بذات المذكور بل المنع على الإجمال

**مثال: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(130)} (آل عمران)

فهل معنى هذا أنه يمكن أكلها شرط أن لا تكون (أضعافًا)؟ لا

لا يجوز، هذا هو (المفهوم المعطل) لأن النهي ليس عن أكل الأضعاف ولكن النهي عن أكل الربا بالكلية ولكنه ذكر(أضعافًا) لبيان عظم الشأن.

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا): أي: لا تبيعون دينكم وتشترون بثمنه عرض من عروض الدنيا (المكانة-الرياسة)، فقد كان لبني إسرائيل مكانة نظرًا لتفضيل الله إياهم على العالمين ولهذا كانوا يحرصون كل الحرص للإبقاء على هذه المنزلة، قوم بهذه الصورة يكون من الصعب على أنفسهم أن ينقادوا فيُصبحوا أتباعًا بعدما كانوا متبوعين.

ملحوظة: العبرة في القرآن بعموم اللفظ لا خصوص السبب؛ وهذا يعني أن نزول الآية حتى لو كان لسبب خاص (فئة معينة أو مناسبة معينة) إلا أن اللفظ عام يشمل كل الأمة، وبالتالي فعلينا أن نحذر حتى لا يبيع أحد دينه ليشتري أمر زائل من أمور الدنيا.

(وَإِيَّايَ): للحصر؛ فالتقوى تكون لله سبحانه لا لغيره.

(وَلَا تَكُونُوا): الخطاب للجمع.

(أَوَّلَ كَافِرٍ): للمفرد. **(وَلَا تَشْتَرُوا):** للجمع

أصل سياق الكلام هل الخطاب فيه هو للجمع أم أنه للمفرد؟

الخطاب للجمع (بني إسرائيل) فلماذا جاء بعد هذا الجمع بلفظة كافر ولم يقل كافرين؟

- جاء اللفظ مفرد ولكن المعنى جمع (أول فريق) وهذا يأتي كثيرًا في القرآن كقوله تعالى: { إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4)} (التحريم) فقد جُمعت القلوب بالرغم من أن المقصود هو كلٍ من(عائشة_حفصة) فقط، أحيانًا يأتي الجمع ويقصد به المُثنى أو المفرد، وأحيانًا يأتي المفرد ويقصد به الجمع(هذا ثابت في اللغة ويعلمه مَن هو على دراية بها) وقد كان العرب أهل لغة وبالرغم من ذلك لم يحاول أحد منهم أن يجادل ويدّعي أن هناك أخطاء في القرآن، ولو كان فيه شيء من هذا لأعلنوا ذلك وأذاعوه وشهّروا بالنبيﷺ فقد كان مبتغاهم

الأول هو تكذيب القرآن! ولكنهم لم يستطيعوا لماذا ؟ لأنهم أهل لغة ولو أراد أحدهم أن يدّعي أن هناك خطأ لرد عليه سامعوه وكذّبوا ادّعائه.

وهنا قد يطرح أهل الكتاب شُبهة تقول: كتابكم يقول:{مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ} ويقول :{مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ}، {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ}،{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ}، وهذا يعني أن القرآن يشهد لكتابنا بالصدق فلماذا تقولون الآن أن كتابنا (التوراة_الإنجيل) فيه تحريف؟

- الجواب: نعم بالفعل وردت هذه الآيات في كتاب الله عز وجل ولكن المقصود بالتصديق هو تصديق ما جاء بها (التوراة) من وصف النَّبِيِّﷺ وما تبقى من صحيح التوراة فقط والأدلة على ذلك

كثيرة، وبالتالي لا يجوز الاستدلال بهذه الآيات على القول بصحة التوراة وكذا الإنجيل.

- وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن التوراة لم تُحرَّف بالكلية والإنجيل أيضًا فهناك بعض التعاليم التي بقيت كما جاءت، ويُذكرُ هذا لأن الناس في هذا الشأن ما بين الإفراط والتفريط (فالبعض يقول أن كل نصوص الكتاب حُرِّفت) ولكن الحقيقة هي بقاء بعض التعاليم (بعض الأمور التي قد تكون مشتركة بيننا وبينهم كتحريم بعض الأشياء).

الخلاصة: أن المقصود بالتصديق هو: التصديق لما جاء فيها من وصف النَّبِيَّ ﷺ والإذعان له واتّباعه وأنه خاتم الأنبياء وسيأتي بكتاب هو خاتم الكتب السماوية وما تبقى من صحيحها (أي هذه الكتب)، أما بقية ما جاء في هذه الكتب وهو قدر كبير منها فقد قامت الأدلة والبراهين الصادقة الواضحة لتبين أنها قد حُرِّفت.

"وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(42) "

هناك توجيهان للآية:

وهما صحيحان مقبولان لا تعارض بينهما

وهذا هو المقصود بقول علي رضي الله عنه: (فإن القرآن حمَّال أوجه)، وبالرغم من ذلك ليس بين هذه الأوجه تعارض أو تضاد أو تفسير إشاري صوفي أو باطني، بل أن جميع الأوجه صحيحة وتستقيم مع الآية.

1- التوجيه الأول هو: النهي عن أمران:

أ- نهي أن يلبسوا الحق بالباطل

ب- والنهي عن كتمان الحق

فحمل الآية على الوجه الأول يعني: لا تلبسوا (لاَ: حرف نهي وجزم، تَلْبَسُوا: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وتكتموا: مجزومة أيضًا بما جزمت به تلبسوا وذلك عطفًا عليها)

2- التوجيه الثاني: النهي عن أن يلبسوا الحق بالباطل، أما ما جاء بعد ذلك (تكتموا) فهو خبر، وهذا كقول الشاعر:

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتيَ مِثلَهُ .. عارٌ عَلَيكَ إِذا فَعَلتَ عَظيمُ

- يخاطب الرب تبارك وتعالى بني إسرائيل : إنكم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق بالرغم من علمكم بذلك ولهذا فقد وجه إليهم توبيخًا شديدًا، ففرقٌ كبير بين مَن يقترف الذنب بجهل ومَن يفعله وهو على علم.

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ): فما هو الحق؟ الحق هو إيمانهم ببعض الأشياء التي ورد ذكرها في التوراة، أما الباطل فهو: إخفاء ما ورد فيها من صفات النَّبِيِّ ﷺ والأمر باتباعه.

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ): هذا ضلال

(وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ): وهذا إضلال

لقد جمعوا بين الضلال والإضلال، فالضلال تمثل في الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر بالرغم من أن لديهم يقين أن هذا الكتاب جاء من عند الله، وكتمان الحق إضلال لأنهم يُضلون غيرهم الذين سيأتون بعدهم وينتهجون نهجهم وبهذا يكونوا قد ضَلّوا وأضَلّوا.

انتبهوا لأن : هذه الصفة المذمومة تلبّس بها الكثير من المسلمين الآن فهم يجمعون بين الإيمان ببعض الأمور والجحود ببعضها الآخر، هذا وإن لم يقولوه صراحةً إلا أن أفعالهم وأقوالهم وأساليب حياتهم تدل على هذا الجحود(صفات بني إسرائيل)

آثار لطف الله

لقد كان من آثار لطف الله سبحانه بالعباد أنه أورد في كتابه آيات (الزجر_المنع من تعدي حدوده)
فلماذا يُعد هذا لطفًا؟

قال تعالى:{ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ}، { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} { وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا} ألا يُعد لطفًا من الحق سبحانه بعباده أن يسبق الحساب بالتحذير والإعذار والإنذار والبيان والإرشاد والتوضيح وبيان عاقبة الأمر، فلا يجد العبد نفسه يوم القيامة مُعذَّب بما كُتِب في اللوح المحفوظ وبسابق علم الله فيه ولكن يسبق هذا اليوم إرسال الرسل وإنزال الكتب والتحذير الشديد من الوقوع في أي فعل شنيع يتعدى به الإنسان حدوده في الحرام والحلال،

لقد ورد التحذير والمنع من تعدي حدود الله في القرآن لنجاة العباد لأن المخاطبين بالقرآن أنواع وأصناف:-

1- صنف يستجيب لأوامر الله ويمتنع بمجرد السماع.

2- صنف آخر قاسي القلب شديد(فيه غلظة) لا يُجدي معه الكلام اللين، هذا الصنف تردعه الأوامر الزاجرة والنواهي لأنها تأتيه كالقارعة فتجعله يرتجف ويهتز فتزجره وتمنعه، ولكن هذا الصنف القاسي المُتلبس بالفجور له صورتان :-

أ- إما النفور عند سماع الموعظة وهو لا يستجيب بالكلية، قال تعالى:{ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)} (المدثر)

ب- وإما البعد بُعْد المتكبر وهذا يكون بَعْد التفكر والتأمل، قال تعالى: { ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)} (المدثر)

وهذا النوع لم يترك الحق لأنه ليس حقًا ولكنه تركه استكبارًا واستعلاءً فبعد أن تفكر أدبر واستكبر

قال ربنا: { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146)} (الأعراف)

- هذه الآية من أكبر الآيات الزاجرة لبني إسرائيل ومَن تبعهم (عموم اللفظ وخصوص السبب) فإن كان السبب في الآية خاص ببني إسرائيل إلا أن اللفظ عام يشمل الجميع.

سؤال: لماذا صرف الله العبد عن الحق إذا كان يبتغيه؟

لأنه لم يرد الحق، لقد سبق له أن تفكّر وتأمّل وعلم فلم يعجبه المنهج فلم يستجب وأبى واستكبر، هذا الإعراض العظيم من هؤلاء كان له مقابل من الله عز وجل ألا وهو صرف قلوبهم عن رؤية ومعرفة الحق، لقد صُرِف القلب انتهاءً لا ابتداءً لأن المعرض لم يرد الحق ابتداءً فصُرِف عنه انتهاءً (وهذه الجزئية تمسّ الإيمان بالقدر وعلى السامع أن ينأى بنفسه عن فكر الجبرية)

3- صنف آخر ليس كسابقه في الغلظة والبعد عن السمع والطاعة ولكن لديه شيء من الخلط (تردد_خلل) فيستقيم على الأمر تارة ويقع في الذنب تارة أخرى، هذا الصنف يردعه النهي، لأن العبد إذا كان لديه شيء من الخير وأتاه النهي من الخالق فإنه يقف ليتأمل في النواهي والزواجر فإذا ما فعل ذلك أصاب الخوف قلبه ورجع وتاب وأناب.

- عندما يجيء النهي من الله (الملك الحق/الواحد الأحد/الكبير المتعال/ ملك الملوك/ عزيز ذو انتقام/ بطشه شديد/عذابه عظيم) فعلى القلوب أن تعي وتفهم أن النهي إذا جاء منه سبحانه فلا يجوز ولا يصح تعدي الحدود بل عليها أن تلتزم وتذعن ولا تستهين بالأمر والنهي.

سؤال : ما هو السبب الذي أدى إلى وصول بني إسرائيل إلى هذه الدرجة من الجدال في الأمر والنهي؟

- السبب جاء في قوله تعالى:(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا)

هؤلاء لم يكتفوا من الدنيا بالكفاف، فأي شيء يزيد عن الكفاف

يفتن صاحبه، ولهذا كان اتباع الرسل وأكثر العلماء والدعاة على مدار العصور فقراء.

- فمَن يرد الرفعة في دين الله فعليه بالتركيز والتجرد والجهد وهذا يتنافى مع الانغماس في الدنيا.

وقفة مع صنيع سلفنا الصالح : سعيد بن المسيب (من علماء السلف الأكابر): تقدم لخطبة ابنته اثنان من الرجال

أحدهما أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك (ملك / نسب/ يصلي ويصوم)، أما الرجل الآخر فهو طالب علم فقير.. فماذا فعل الأب العالم ؟ قام بتزويجها لهذا الطالب الذي لم يكن يملك سوى دينارين.

الفرق بيننا وبين هؤلاء هو أنهم فهموا هذه النصوص فهمًا جيدًا لدرجة أنهم تلبسّوا بها (يُمارسون أوامر الله في كل صغيرة وكبيرة)، أما نحن فإننا حافظون لهذه النصوص فقط.

- إذًا أي شيء يزيد عن الكفاف يُوقع صاحبه في محاذير كثيرة وأي شخص يسعى لينال من الدنيا لن يكون أهلًا للاصطفاء ولا خاصة الله عز وجل.

" وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(43) "

سياق الكلام مع بني إسرائيل بدأ بالتذكير بالنعم ومنها تفضيله سبحانه لهم على العالمين، ثم أمرهم بالرهبة ثم التقوى واتباع النبيﷺ وما جاء به، ولكن ما أمر به هؤلاء كان صعبًا عليهم وربنا يعلم هذا، ولذلك كان لطفًا منه سبحانه بهم أن يُذَكّرهم بالنعم حتى يستجيبوا.

- ثم أمرهم بالإيمان بالنبيﷺ وأن يكونوا أتباعًا له (الأمر شديد عليهم)، فَيَسَّر اللطيف المنان عليهم الأمر فقال:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) : إقامة الصلاة أي أن يصلي العبد كما أمره ربه في الظاهر والباطن (إقامة شعائرها) وهي من أعظم الشعائر لأنها تجمع بين الأعمال القلبية والبدنية؛ فالظاهرة (طهارة / ووقوف بين يدي الله/ تلاوة) والباطنة (خشوع/ خضوع/ حضور القلب/ طهارة النفس وسلامتها) وهذا هو حق الله.

(وَآتُوا الزَّكَاةَ) : وهذا هو حق المخلوق.

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ): الأمر الوارد بالركوع في الآية يحمل الدليل على أنهم أُمروا أن يصلوا صلاة المسلمين لأن صلاة اليهود ليس فيها ركوع ولا سجود كما أن صلاتهم لن تنفعهم.

_استطراد : الآية تتضمن الأمر بصلاة الجماعة، فقد استدل العلماء بهذه الآية على فرضية صلاة الجماعة (واركعوا): هذا أمر وأصل الأمر للوجوب إلا أن يأتي صارف (وهو غير موجود)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «صَلاَةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاَةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»[أخرجه البخاري(645)، أخرجه مسلم(650)]، وفي رواية «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَعْدِلُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ» [أخرجه مسلم(649)]

_هذه الروايات لا تتضمن الخروج من الفرضية إلى السنية ولكنها تحمل بيان فضل الجماعة.

- وفي الآية أيضًا بيان أن الركوع ركن في الصلاة لأن التعبير عن عبادة معينة بجزءٍ ما منها يعني أنه ركنٌ فيها.

- خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل تتضمن أيضًا: إفهام لبني إسرائيل: فعليهم أن يستدرجوا الأخطاء التي صدرت منهم ويرجعوا إلى ما أمرهم الله به.

"أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) "

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ) : البر كلمة شاملة لكل أنواع الطاعات، قد تأتي مطلقة وقد تأتي مقيدة، فإذا جاءت مطلقة فإنها تشمل كل أنواع الطاعات، أما إذا جاءت مقيدة فإنها تكون مقيدة بما قيدت به.

- فيا أحبار اليهود وعلمائهم ويا مَن تحملون التوراة هل تأمرون الناس بالخير والبر والطاعة وتنسون أنفسكم فتحرمونها من هذا

الخير الذي سيعود عليها إن هي استسلمت للأمر والنهي واستجابت لهما.

على السامع أن ينتبه : لأن العقاب الذي سيلحق بكل مَن أمر الناس بالمعروف ولم يأته سيكون شديدًا جدًا، وكذا مَن ينهى عن منكر ثم يأتيه، احذروا أن تتلبسوا بهذه الأفعال (تأمرون بمعروف ولا تفعلوه وتنهون عن منكر وتقعون فيه)

- عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ قِيلَ لِأُسَامَةَ لَوْ أَتَيْتَ فُلاَنًا فَكَلَّمْتَهُ، قَالَ: إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لاَ أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ، إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلاَ أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ، بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: " يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ " [أخرجه البخاري(3267)]

سؤال : شخص مُتلبس ببعض الذنوب جلس في مكان وقعت فيه بعض المنكرات ماذا عليه أن يفعل؟ هل يسكت حتى لا ينطبق عليه الحديث؟

المسألة تحتاج إلى تفصيل:

الشخص الذي ينهى الناس عن المنكر رياء وسمعة وهو يأتيه مصرًا عليه يخضع لهذا الحديث.

- أما مَن ينهى عن منكر ويأتيه ولكنه يُجاهد نفسه ويُحاول معها لعلمه أنه يرتكب ذنبًا هذا سينال جزء من الذنب ومعنى ذلك أنه

ليس مُساويًا لسابقه في الدرجة.. لماذا؟ لأنه يُجاهد نفسه لتكف عن فعل هذا الذنب الذي يقع فيه ضعفًا وليس إصرارًا وكما سبق القول أنه لن ينطبق عليه الحديث ولكن عليه أن يحذر.

سؤال آخر: لماذا جاءت هذه التفرقة ؟

يقول العلماء: لأن واجب المسلم أمران:-

1- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (هذا واجب).

2- الانتهاء عن ما أمرت به ونهيت عنه وهذا واجب ثانٍ.

والكمال يكون في الإتيان بهما معًا فإذا لم يفعل أحدهما فقد أسقطه.

جزئية أخرى: إنسان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه غير قادر على الإتيان بكل المعروف والامتناع عن كل المنكر: هذا الإنسان به خلل وعلى خطر عظيم وعليه أن ينتبه لأنه يمكن أن يموت على هذه الحال ولا نعلم كيف سيكون الحساب.

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ): أصل العقل المنع، ومنها عقال البعير وسمي بذلك لأنه يمنعه من الجموح والهرب، ويقال العقل في الدية وهذا يعني: أنها تمنع ولي المقتول من قتل الجاني لأنه أخذ الدية.

- والاستفهام إنكار وتوبيخ وتقريع لهؤلاء.

هذا تقريع شديد وتوبيخ عظيم موجه للعلماء والدعاة وكل مَن وقف في موقف مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو لا يعمل بما يحث الناس عليه، هذه أفعال فظيعة وخصال شنيعة

تتنافى مع أحوال المؤمنين وبالتالي لا ينبغي أن يتصف بها إنسان عاقل ولذلك خُتِمَت الآية (أفلا تعقلون).

يقول الشاعر:

(وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لا حب التلاوات)

فعلى المرء أن يحذر من أن يكون همه في الدين هو كسب الفوائد أيًا كانت لأن هذا هو الذي أوصل بني إسرائيل للخسران المبين، لقد كان هدفهم هو نيل الجاه والرياسة والمكانة.

انتبهوا : لأن كسب الفوائد (طلب العلو والصدارة والسيطرة وشهوة العلم) قد يحمل مُبْتَغِيها على تحصيل العلم الشرعي من هنا وهناك فتضيع أنفاس عمره هباءً.

- فعلينا أن نسعى للوصول للأعمال العظيمة بالقلوب السليمة وعند الموت يقف الواحد منَّا بين يدي ربه وهو يأمل أن لا يكون له مثيل من أهل زمانه في هذا الموقف (فكلٌ سيحاسب حسب الزمان الذي جاء فيه)

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أليس لديكم عقل يمنعكم من الضلال ويرشدكم إلى الحق، ألم تمر بكم آية تزجركم وتمنعكم من هذا الجموح الباطل،

وكلمة (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) لابد أن يضعها كل عبد أمام عينيه وكلما جمحت به نفسه فاشتهت الدنيا واشتدت هذه الشهوة والرغبة فحملته على طلب العلو الدنيوي فعليه أن يزجرها ويُذكرها بقوله سبحانه (أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

- نسأل الله عز وجل أن يرزقنا العقل والحكمة والفهم والقوة على العمل بما علمنا لأن العبد عاجز عن تنفيذ أي عمل من غير عون

الله ومدده، ولذلك فإن الملك الحق الرحمن الرحيم الودود علم أن الأمر صعبٌ عليهم فأرشدهم إلى كيفية الوصول.

فما كل هذه العظمة والمن والكرم والعطاء والفضل والحلم !!
لم يُعاجلهم بالعقوبة وإنزال الرجز والعذاب بل أعطاهم الوسيلة والحل وأرشدهم إلى سبيل النجاة، النجاة من الرغبة في كسب الفوائد يكون بالاستعانة بالصبر والصلاة، لأن الصراع الدائر بين العبد ونفسه شديد وغالبًا ما يخرج العبد منه مهزوم وخسران، ومهما حاول أن ينتصر على نفسه فإنه قد يُغلب، وحلّ هذا الأمر قد حسمه الله رب العالمين فَبَعد البيان والإرشاد أمرهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة **(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)**

- ألم يقل نوح عليه السلام: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)}
(القمر)

هذا قول نوح عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل، النبي الشديد القوي في إيمانه وفي يقينه يفوض أمره لربه ويتركه له لينتصر هو سبحانه.

- فما الذي يُضيرنا إذا ما اشتكينا أنفسنا لربنا (مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ) فالنفس أمارة وكلما حاول العبد معها هزمته وأوقعته فليشتكِ إلى ربه كي ينتصرعليها، فأرشد سبحانه عباده إلى سبيل النصر وهو الاستعانة بالصبر والصلاة.

- طريق النجاة في الصلاة ولكن : كما رأيتموني أصلي

عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ، قَالَ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ،

وَكَانَ رَفِيقًا رَحِيمًا، فَقَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ» [أخرجه البخاري(6008)]

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ): المخبتين المتواضعين، مَن خشعت جوارحهم وخضعت قلوبهم لله عز وجل فتحققت كل المعاني في الصلاة.

ولكن قبل الاستعانة بالصلاة كان هناك استعانة بشيء آخر وهو الصبر، فقدم الصبر على الصلاة

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ»
[أخرجه مسلم(1053)]

- من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

- مَنْ أَيْقَنَ بالخُلْف جَادَ بِالْعَطِيَّةِ.

وهذا يعني : أن الإنسان إذا عرف قدر ما يطلب هان عليه ما يبذل، فالمطلوب هو الجنة والدرجات العلا فيها والأعظم من هذا وذاك رؤية ملك الملوك، فإذا كان المطلب عالٍ جدًا هان المبذول في سبيله جدًا جدًا.

- عَن ابْن عَبَّاس، رَضِي الله تَعَالَى عَنْهُمَا: (أَنه نعى إِلَيْهِ أَخُوهُ قثم، وَهُوَ فِي سفر، فَاسْتَرْجع ثمَّ تنحى عَن الطَّرِيق فَأَنَاخَ فصلى رَكْعَتَيْنِ أَطَالَ فيهمَا الْجُلُوس. (عمدة القاري شرح صحيح البخاري)

- هؤلاء البشر(الصحابة العِظام) كانوا متلبسين بالأوامر مُتشبعين بها يُمارسونها في كل شأن من شئونهم، فعندما جاءه الخبر استرجع (أمر الله) ثم صلى (أمر رسول اللهﷺ) لقد جمع بين التوجيه الإلهي والتوجيه النبوي ففاز بالحسنيين

- قَالَ حُذَيْفَةُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى» [مسند أحمد (23299)]

الصلاة فيها: (ستر العورة / صرف الوجه إلى الكعبة / إظهار الخشوع بالجوارح / إخلاص النية بالقلب / مجاهدة الشيطان / مناجاة الحق تبارك وتعالى / قراءة القرآن كلام الله/ التكلم بالشهادتين / الصلاة على النبيﷺ)

- كل هذه المعاني اجتمعت في الصلاة، والرب سبحانه أمرهم بأمرين (الصبر_الصلاة) ليستعينوا بهما على ترك كسب الفوائد.

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ) : هذه الكلمة هل المقصود بها الصلاة أم الاستعانة؟

1- قال فريق من أهل العلم: أن المقصود هو الاستعانة، لأن الاستعانة بالله ليست بالأمر السهل.

- فالجميع يعلم فضل الاستعانة ولكن الاستعانة على الوجه الصحيح، والتبرؤ من الحول والقوة، وصدق القلب في الاعتماد على الله بالتوكل، والعلم بأن التوفيق في العمل لن يكون إلا بإذن

الله ليس سهلًا، فهو يحتاج إلى جهاد وتدريب للقلب على الاستعانة.

2- فريق آخر قال: أن المقصود الصلاة (إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

- إذًا إجابة السؤال: فيها نزاع بين أهل العلم والأقوال كلها محتملة والقرآن حمَّال أوجه فقد يكون المقصود الصلاة وقد يكون المقصود الاستعانة.

(سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)